العائلة المسيحيّة والكاهن

الدكتورة سهيلة رزق - سلّوم (٥)

لا بدّ لأيّ عمل راعويّ يقوم به الكاهن تجاه العائلة من أن يُبنى على معرفة هذه الأخيرة معرفةً عميقة، وعلى موقف منها سليم. فما أهمّيّة العائلة، وما المعطيات التي تسمح لنا، في ضوء علم النفس، بتحديد علاقة الكاهن الصحيحة بالعائلة؟

القسم الأوّل: العائلة إزاء الكاهن

ما العائلة، أهمّيّتها، دورها ووظيفتها؟ وما ميزات العائلة المسيحيّة؟

١ - ما العائلة؟

أ - العائلة مؤسّسة اجتماعيّة ثقافيّة: تحمل التراث وتنقله وتورثه بطريقة واعية أو غير واعية. تنقل العادات والتقاليد والقِيَم والأفكار والعقائد، وكذلك المخاوف والتصوّرات والإيمان أيضًا. (كلّ ذلك يُكوّن أرضيّة التربية الأساسيّة).

* تنقل العادات: عادات الأفراح، والحزن والحداد، والعادات الطقسيّة. إذ الطقوس تُجذّر أفراد العائلة في انتمائهم الكنسيّ، وتكوّن الصلوات الليتورجيّة بحدّ ذاتها مدخل التثقّف الدينيّ واللاهوتيّ.

---

(٥) أستاذة في الجامعة اللبنانيّة.

* تنقل القِيَم التي تمتاز بها العائلة المشرقيّة: حبّ الضيافة، حبّ المعرفة والأسفار والتجارة...

* تنقل التصوّرات والمخاوف التي عاشتها الجماعات والعائلات في الماضي (حروب، اضطهادات، اقتلاع من الأرض...) بحيث تبقى مختزنة في اللاوعي الجماعيّ. وهي تغور فترة ثمّ تعود فتعوم عند أوّل حدث معاش يشابه الأحداث السالفة[١]. (من هنا الحاجة إلى تربية الذاكرة وتنقيتها).

* العائلة المشرقيّة تنقل الإيمان: إيماننا أخذناه من عائلاتنا، لم نكتشفه بعمر معيّن، لكنّنا نشخصنه بعيشنا إيّاه، ويساعدنا تثقفنا الدينيّ على تعميقه.

العائلة المشرقيّة هي العامل الأساسيّ في تكوين هويّتنا الجماعيّة والحضاريّة والدينيّة من دون أيّ انغلاق. فإن صمد إيماننا في المشرق فلصمود العائلة فيه؛ وإن هوت العائلة أو اهتزّت أو اقتُلعت من أرضها، يهتزّ وُجودنا وتضيع هويّتنا.

إن لم نحافظ على التقاليد والقيَم والأرض، من دون جمود، نُصبح بلا جذور تائهين. من هنا ضرورة مساندة العائلة ومساعدتها إذا ما تداعت أو هوت، وتحصينها من المخاطر التي تلحق بها وخاصّةً في وضعنا الحاضر في الشرق كما في الغرب.

قال قداسة البابا في رسالته إلى العائلات:[٢]

«تعتبر الكنيسة أنّ خدمة العائلة هي إحدى مهمّاتها الأساسيّة. بهذا المعنى يكوّن الإنسان والعائلة معًا «طريق الكنيسة»».

«L'Eglise considère que servir la famille est l'une de ses tâches essentielles. En ce sens l'homme et la famille également constituent «La Route de l'Eglise» (§2)

---

(١) Mendel, Gérard; *La Révolte contre le Père*, Paris, P.b.P. 1968, p. 403.

(٢) Jean-Paul II; *Lettre aux Familles*, 1994, §2.

ب - العائلة عصبة *(Groupe)* مؤلّفة من أب وأمّ وأولاد: تكوّن العائلة هذا المثلّث النفسيّ الأساسيّ لإقامة العلاقة العاطفيّة الموضوعيّة (علاقة الموضوع لا العلاقة النرجسيّة) الضروريّة لعيش المحبّة المتفانية أي محبّة الآخر لا محبّة الذات. (من هنا خطر عدم تكوين هذا المثلّث في حالة العائلة الأحاديّة الوالد أو الوالدة Monoparentale).

العائلة-الوحدة تطبع أفرادها بطابع خاصّ، وهي التي تحدّد نوعيّة علاقة الفرد بالآخرين في ما بعد.

فالعلاقة الاجتماعيّة التي يقيمها الإنسان تكون مبنيّة دائمًا على النموذج الأوّل الذي أقامه في علاقته بكلّ واحد من أفراد العائلة. فالعقد النفسيّة العائليّة كالعقدة الأوديبيّة أو العلاقة بالأب والأمّ أو منافسة الإخوة أو عقدة الدونيّة، إن لم تُحلّ داخل العائلة ينقلها الفرد معه إلى المجتمع، فيعيش حالات المنافسة والكره والعداء أو حالات المحبّة والتضحية[٣].

مثلًا: عقدة الدخيل[٤] (Complexe de l'intrus)

يعتبر الولد أخاه الوليد الجديد دخيلًا يزاحمه محبّة الأمّ، فيشعر بعدائيّة، ويتمنّى له الموت. يعيش هذه الحالات، لكنّه يشعر رويدًا رويدًا بأنّ الأمّ يمكنها أن تحبّ الاثنين، كما يقتنع رويدًا رويدًا أنّ عليه أن يقبل بالحرمان، (فيتعلّم أن يجابه الحرمان في الحياة) ويتقاسم وإخوته الأعمال والأشياء... وإن لم يقدر على ذلك يتزو، ممّا يؤدّي إلى حالات انفصاميّة (Psychose schizophrénique)، أو عُصابيّة (Névrose hypocondriaque).

العقدة الأوديبيّة (Complexe d'Oedipe)

يعي الولد الفروقات الجنسيّة، ويميل الصبيّ إلى أمّه ويدخل بمنافسة

---

(٣) Kaës, René; *L'Appareil psychique groupal*, Paris, Dunod, 1976, p. 25.

(٤) Corman, Louis; *Psychopathologie de la rivalité paternelle*, Bruxelles, Dessart, 1970.

أبيه، ويأخذه مثالًا له أيضًا. والأمر نفسه يحدث بين البنت وأمّها. ويدرك الولد أيضًا المحرّمات ويستدخل القانون (Intériorisation de la loi). ويقبل بشريعة الأب وبسلطته وبالتالي بالسلطة. أمّا إذا دخل في عمليّة رفض تامّ أو خضوع تامّ، فينشأ عن ذلك في ما بعد رفض أيّة سلطة أو أيّة شريعة أو أيّة قدسيّة أو أيّ محرّم...

إنّ العقد الأوديبيّة (كما يقول فرويد) هي نواة الأمراض العصابيّة. من هنا ضرورة الوضعيّة المثلّثة التي تكلّمنا عليها وخطورة العلاقة الثنائيّة التي تمنع الطفل من أن يعيش الوضعيّة الأوديبيّة ويتخطّاها إلى العلاقة الموضوعيّة لا النرجسيّة.

٢ - دور العائلة ووظيفتها

العائلة تؤمّن الحاجات النفسيّة الأساسيّة.

وتقدّم إلى الولد الحاجات النفسيّة الثلاث الضروريّة لنموّه وهي: الأمن والمحبّة والتضامن[٥].

أ - الأمن: يشعر الولد بالأمن، حتّى ولو كان محاطًا بالأخطار الخارجيّة، إذا وجد قربه أحد أفراد عائلته ممّن يطمئنّ إليهم. وقد دلّت أبحاث قامت بها آنا فرويد وبورلنغهم[٦] أثناء قصف لندن في الحرب العالميّة الثانية أنّ الأولاد الذين ظلّوا في لندن تحت القصف كانوا يتابعون اللعب وينامون شرط وجود أمّهم قربهم، أمّا الأولاد الذين أُبعدوا إلى الجبل فقد أظهروا قلقًا أكثر من الأوّلين.

ب - المحبّة: يجب أن يشعر الولد بأنّه محبوب في عائلته كي يكون سعيدًا، وهذا الحبّ يجب أن يكون صادقًا. فالظواهر الخارجيّة والألعاب والهدايا والمال لا تخدع الولد. إنّه بحاجة إلى العاطفة ليشعر بالأمن.

---

(٥) Porot, Maurice; *L'Enfant et les relations familiales*, Paris, P.U.F., 1979.

(٦) Freud, A. and Burligham, D.; *War and Children*, New York, International Universities Press, 1943.

يجب أن يشعر بأنّه محبوب لما هو لا لما يفعل، وهذا مهمّ أصبيًا كان أم فتاة.

ج - التضامن: وعليه ترتكز العائلة. لذا فالتفاهم بين الأبوين ضروريّ ليشعر الطفل بأنّ والديه «جبهة واحدة» متماسكة. قد يحدث اختلاف في وجهات النظر بينهما، أمّا في حضور الولد فيجب أن يكونا متضامنين على الطرق التربويّة خاصّة وعلى القِيَم الأخلاقيّة والروحيّة التي يجب غرسها في الناشئة.

٣ - العائلة ومزاياها الصحيحة

العائلة وحدة تحترم الفروقات وتتطلّع إلى المستقبل.

أ - العائلة وحدة: وهذه الوحدة لا تعني أن يذوب فيها الشخص، كما في المجتمعات التقليديّة المتعصّبة، أو البدائيّة. كما لا تعني أيضًا أن تذوب العائلة في أنانيّة الفرد، كما نرى في بعض المجتمعات التكنولوجيّة حيث الفرديّة تطغي على روح العائلة كما في العائلة الأحاديّة الوالد أو الوالدة بشكل عامّ.

تكوّن العائلة بتنوّعها مخطّطًا صغيرًا للمجتمع تتشابك فيه الأدوار وتتصادم أحيانًا، لتعود وتتلاقى بنوعٍ من انسجام طبيعيّ تولّده الأُلفة والمحبّة. فتعوّد الولد منذ نشأته دوره المجتمعيّ بكامل تشابكاته.

ب - تحترم الفروقات

أوّلًا: الفروقات الجنسيّة: كي لا نصل إلى الخلط بين الجنسين (Confusion des sexes)، وهنا تبدأ التربية الجنسيّة، ودور الوالدين حاسم في هذا المجال.

فبالرجوع إلى صورة الأب وإلى صورة الأمّ يحقّق الولد جنسه: يحقّق الصبيّ ذكورته باتّخاذه الأب مثالًا للأنا، كما تحقّق الفتاة أنوثتها باتّخاذها الأمّ مثالًا للأنا. فالولد لا يكتشف ذاته إلّا نسبةً إلى مرجع معيّن: الأب، الأمّ، الرجل، المرأة. وهذا ما يتطلّب نضجًا جنسيًّا عند

الأهل فلا يسقطوا عقدهم الجنسيّة على أولادهم. كما تفترض التربية الجنسيّة تقدير الأهلِ جنسَ ولدهم ومراعاته، فإن كان صبيًّا يُربّى كالصبيّ المعدّ لدوره الأبويّ المستقبليّ، وإن كان فتاةً تُقدَّر أنوثتها، بحيث لا نمتهنها كما نلاحظ في كثير من العائلات، ولا نشعرها بالدونيّة بل باعتزاز لكونها أنثى تتهيّأ لدورها الأموميّ المستقبليّ.

ويتأثّر سلوك الوالدين تجاه أولادهم في هذا المجال بمدى تقبّلهم أبوّتهم أو الأمومة، أي ما نسمّيه «الوظيفة الوالديّة» (La fonction parentale) التي لها صلة بنوعيّة علاقاتهم بوالديهم في ما مضى.

ثانيًا: فروقات الأعمار أو فروقات الأجيال: مراعاة فارق الأجيال يفترض أن نعدّ أولادنا لمستقبلٍ غير مستقبلنا، فهم جيلٌ غير جيلنا وتطلّعاتهم غير تطلّعاتنا، فلا نشدّهم إلى الماضي (كما نحن) ولا نقلّدهم ونمشي على طريقتهم، فيقلّد الكبير المراهق (Société adolescentrique). فالكبير - أو الأب - «مثال الأنا» للصغير وليس العكس، فلا نأخذ أولادنا نموذجًا لتصرّفاتنا.

الصغير لا يستطيع أن يأخذ دور الكبير ولا الكبير دور الصغير، وإلّا اختلطت الأعمار واختلطت الأجيال وضاعت الحدود وضاع بالتالي الاعتراف بالبنويّة والأبويّة، فلا يعود أحد يدرك أو يرى موقعه أو دوره فيحدث ما يسمّى فقدان الوظيفة الوالديّة(٧) (Déparentalisation). فالأولاد أصبحوا «رفاق» أو «أصحاب» والديهم (Copains)، فهذه «الأخوّة المزعومة تسيء إلى العلاقة وتضعف الشخصيّة وتثير حياة انفعاليّة أكثر منها عاطفيّة وتضعف التكيّف الاجتماعيّ، فننغلق في مجتمع مراهقيّ حيث تضيع العلاقة البنويّة ويزيد التعدّي على المحرّم الأساسيّ». كما يقول أناتريلا في كتابه عن المراهقة التي لا تنتهي(٨).

---

(٧) Cyrulnik, Boris; *Sous le signe du lien*, Paris, Hachette.

(٨) Anatrella, Tony; *Interminables Adolescences, les 12-30 ans*, Paris, Cerf, 1990.

ثالثًا: فروقات الأدوار: (بين الأب والأمّ)

٭ دور الأمّ النفسيّ: المحبّة أي العطف من دون ضعف. الحبّ الأموميّ مبنيّ على تبادل عاطفيّ بين الأمّ وولدها، فحياتها العاطفيّة وتوازنها النفسيّ يؤثّران في نوعيّة الحبّ الذي تمنحه لولدها (تعلّق ثمّ افتراق أو فصل) وفي نوع الحبّ الذي يمحضه إيّاها ولدها (ابنها أو بنتها): فإمّا استمرار حالة الطفوليّة أو الوضعيّة الأوديبيّة وإمّا استقلاليّة ونضج.

٭ دور الأب النفسيّ: السلطة من دون تسلّط. الأب حامل الشريعة. ينتظر الولد المحبّة من أمّه والسلطة من أبيه. يستطيع الأب أحيانًا أن يوكل بجزء من سلطته إلى بعض الأشخاص (مربٍّ، كاهن، مرشد...) ولكن ليس بالسلطة كلّها ولا كلّ الوقت.

ضمن العائلة الواحدة تُعاش هذه الأدوار، وتُراعى الفروقات والحدود ويُستوعب القانون والشريعة، وينشأ الضمير الأخلاقيّ، وتُحترم المحرّمات.

ج - تطلّع إلى المستقبل: ما يجمع الزوجين هو أكثر من الحبّ، بل ما ينتج من الحبّ أي المشروع المستقبليّ: تكوين العائلة وتربية أطفال المستقبل (Projet d'avenir).

(البابا يوحنّا بولس الثاني: العائلة تبني حضارة الحياة).

٤ - العائلة المسيحيّة

٭ العائلة هي المكان الأفضل لعيش القِيَم المسيحيّة.
- الديمومة: إنطلاقًا من رباط الزواج المقدّس.
- الإخلاص: سرّ المحبّة المتفانية.
- الإثمار والإنجاب: إنتظار الأولاد وتربيتهم.
- التضحية: عطاء الذات من دون مقابل.

وقد تكلّم قداسة البابا في رسالته إلى العائلات على الأبوّة المسؤولة

والأمومة المسؤولة، على دور الأمّ منذ ما قبل الولادة، وعلى دور الأب ومساندته دور الأمّ، وعلى عطاء الذات من دون مقابل. (Don désintéressé de soi, §11)

هذه القيَم تعاش في البدء داخل العائلة كي يستطيع الفرد أن يعيشها بكلّ حقيقة في المجتمع ومع الآخرين.

☼ أهمّيّة دور العائلة في الكنيسة: إنّ العائلة مدعوّة إلى القيام بمهمّتها التربويّة في الكنيسة ومن أجل الكنيسة، فتشارك في الحياة الكنسيّة وفي العمل الرسوليّ وفي البشارة مع الكنيسة ولأجلها. فلا كنيسة بدون عائلة ومن العائلة تبدأ الكنيسة. وحدها العائلات التي تتّصف بالنضج الروحيّ تستطيع القيام بهذا العمل. (رسالة البابا - ١٧§).

القسم الثاني: الكاهن إزاء العائلة

الكاهن بصفته مرشدًا أو مرافقًا روحيًّا (accompagnateur) له علاقة بالعائلة أو بأحد أفرادها.

☼ نقطة أساسيّة علينا أن نركّز عليها في هذا المجال

كلّ علاقة بفرد تُدخِل حتمًا «العائلة» كخلفيّة. فالفرد لا ينفصل عن العائلة، إنّه يحملها في ذاته، في وعيه وفي لاوعيه، ويتصرّف مع الآخرين بتأثيرات حسب نوعيّة علاقته العائليّة التي استدخلها في نفسه. (Famille «intériorisee»)[٩]. عندما تتكلّم مع شخص لا تتكلّم معه وكأنّه منفصول أو معزول عن عائلته. وعندما يتكلّم الكاهن مع شخص ضمن علاقة إرشاد روحيّ أو مرافقة روحيّة، لا يتكلّم مع شخص منفرد أو معزول، بل مع فرد يحمل في لاوعيه كلّ العقد العائليّة بشكلها الإيجابيّ الحسن والمتكيّف، كما بشكلها السلبيّ اللامتكيّف.

هذا يعني أنّ التأثير في الفرد ليس سهلًا، لأنّه إن حصل يؤثّر بدوره

(٩) Laing, Ronald; *La politique de la famille*, Paris (Stock plus), 1979, pp. 14-15.

في شبكة العلاقات العائليّة التي تربط الشخص بسائر أفراد عائلته. وهذا أمر مهمّ.

في علاقة الكاهن بالفرد أو العائلة يجب الأخذ بعين الاعتبار المعطيات التالية:

١ - ليس الكاهن فردًا من أفراد العائلة؛ ولا يمكنه أن يأخذ دورًا من أدوار العائلة (مثلًا دور الأب)، أو أن يدخل من الناحية النفسيّة في العلاقات الحميمة التي تعيشها العائلة. إذًا ضرورة الحفاظ على ما نسمّيه «البعد» (Distanciation).

٢ - في العلاقة بالكاهن المرافق أو المرشد ينقل إليه بعض أفراد العائلة أو العائلة ككلّ قسمًا من العاطفة (Affect) في ما نسمّيه «النقلة» (Transfert)، وهذه وضعيّة دقيقة جدًّا. إذ إنّه بهذه الآليّة قد يدخل الكاهن في «جوّانيّة» العائلة ممّا يحتّم عليه أن يُبقي على بُعده ولا ينخرط في أدوار ليست له.

٣ - الكاهن مرشدًا روحيًا في أوساط الشباب: هو «مثال للأنا» جديد. يعمل المراهق بهذه المرحلة من عمره على فكّ الرباط الأوديبيّ ثانية وإثبات استقلاليّته، فيبحث عن مُثل عليا عند أشخاص يكونون من خارج الإطار العائليّ. فالمرشد بمثاليّته وخدمته وتجرّده واقتدائه بالمسيح يكون المثال الصالح الذي يجب أن يقدّمه إلى المراهق.

٤ - الاستماع (l'Ecoute): لنترك للشباب المجال ليعبّروا عن أنفسهم، فنعرف كيف نستمع إليهم، من دون أن نخلق عندهم شعورًا قلقيًّا بالذنب. فالله محبّة وليس عقابيًّا. فأيّ إرشاد روحيّ يُشدِّد على الخطيئة وعذابات جهنّم يُغذّي هذا الشعور بالذنب الذي يكون مرهقًا في مرحلة الشباب ممّا يؤدّي إلى حالات كآبيّة (Mélancoliques) وهبوطيّة (Dépressives). ولا يعني ذلك موقف لامبالاة وعدم اكتراث (Laxisme)، بل المطلوب أن نُنمّي المسؤوليّة.

٥ - المرشد الروحيّ هو مرافق:

- من المستحسن أن يطّلع الكاهن على العلوم الإنسانيّة الحديثة كعلم النفس، ليتعرّف إلى الشخصيّة الإنسانيّة في بعدها النفسيّ.
- ولكنّ المرشد الروحيّ ليس بالمعالج النفسانيّ أو العالم النفسانيّ.
- لا مجال أن يغوص في أعماق العقد النفسيّة، فقد يُسيء حيث يظنّ أنّه يُحسن. إذ لهذه المعالجة قوانين خاصّة تتطلّب تخصّصًا علميًّا.
- عليه أيضًا الابتعاد عن بعض النظريّات شبه النفسيّة التي هي أقرب من ضروب الشعوذة والعقليّة السحريّة منها إلى العلم الصحيح.

٦ - الاهتمام بقضايا العائلة: لاحظت وثيقة الخطوط العريضة لسينودس الأساقفة في الجمعيّة الخاصّة من أجل لبنان «غيابًا لرعاية أسريّة منظّمة ومعمّمة...» (الفقرة ٤٧ المقطع ١٠). من هنا الحاجة إلى نشاطات مكثّفة واهتمام جدّيّ بقضايا العائلة لبناء حضارة الحياة والحبّ التي دعا إليها قداسة البابا في ندائه إلى الشبيبة في دنفر (Denver). والعائلة هي قلب حضارة الحبّ. لأجل ذلك:

- تحديد المواقف من القضايا العائليّة على نور تعاليم الكنيسة:
  - ☼ القضايا الأخلاقيّة الحياتيّة: Bioéthique
  - ☼ الموقف من الجنس
  - ☼ الموقف من وسائل تحديد النسل والإجهاض
- تفهّم معاناة العيل من الداخل بدون تصلّب، ولكن بوضوح المواقف. فالكنيسة التي يمثّلها هي أمّ ومعلّمة (*Mater & Magistra*).
- الموقف من قضايا أخرى اجتماعيّة واقتصاديّة، وهذا يحتّم:
  - ☼ العمل لإيجاد بنى تدعم العائلة
  - ☼ الذهاب نحو العيل والحفاظ على كرامتها

فيكون بذلك مثال الراعي الصالح الذي يعرف خرافه واحدًا واحدًا.

٧ - ميزات الكاهن وصورته: على الكاهن أن يتحلّى بميزات تجمله

واضحًا ورجل ثقة، وهي:

* من الناحية الفكرية والثقافيّة: تفكير صحيح، نظرة موضوعيّة، قدرة على الانفتاح والتمييز (Discernement).

* من الناحية النفسيّة: إتّزان نفسيّ، أي ضرورة معرفة الذات وامتلاك طاقة على التضحية وقدرة على تسامي الطاقة الجنسيّة واستثمارها روحيًّا واجتماعيًّا (هنا يُطرح اختيار التبتّل أو الزواج)، وقدرة على التكيّف في محيطات مختلفة وقدرة على التفرّغ الذاتيّ. وهنا يصحّ لنا التساؤل بخصوص بعض الكهنة الذين ليس لهم وقت لرعيّتهم بسبب انشغالهم بأعمال خارج الوظيفة الكهنوتيّة (Fonctions para-sacerdotales).

* صورة الكاهن عندنا: هناك انتقادات عديدة تُوجّه إلى الكاهن لأسباب مختلفة، منها صحيحة يجب تداركها، ومنها تنبع من نفسيّة انتقاديّة لكلّ ما هو دين وكنيسة.

الناس تحاسب الكاهن أكثر من غيره وتطرح علامات استفهام حول بعض النقاط منها: روح الخدمة، الطاعة، الفقر، والعفّة... فهو اختار أن يكون كاهن المسيح ويتبعه.

في النهاية، الكهنوت رسالة سامية ومُقدّسة أُلقيت على عاتق إنسان له كلّ أبعاده الإنسانيّة، أي العاطفيّة والجنسيّة والاجتماعيّة والروحيّة. فهو ليس إلهًا ولكنّه يسعى إلى القداسة (القدّيس يتعثّر أيضًا). نحن جميعًا - كهنة وعلمانيّين - مدعوّون إلى السير «على خطى المسيح في طريق القداسة».

صدر حديثاً عن دار المشرق